

تاريخ الإرسال (2018-11-12). تاريخ قبول النشر (2019-03-27)

* 1

د. أجمل فهد نهار الطويقات

اسم الباحث:

وزارة التربية والتعليم / الأردن

1 اسم الجامعة والبلد:

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address:

daltwaiqat@gmail.com

الأبعاد الدلالية للمكان في نثر لسان الدين بن الخطيب

الملخص:

يتناول البحث الأبعاد الدلالية للمكان في نثر لسان الدين بن الخطيب، فقد حاز المكان في نثر لسان الدين بن الخطيب مساحة واسعة في مؤلفاته، واقترن ذكر المكان في نتاج ابن الخطيب في مجال الاهتمام بالدراسات الجغرافية باعتباره يشير إلى مادة جغرافية؛ لذا جاء هذا البحث لينأى بالمكان عن هذا التحديد الضيق والاختزال غير الموضوعي له، ويُعيد دراسة المكان في نثر لسان الدين بن الخطيب بوصفه مادة أدبية، تعنى بجمالية المكان، وعنصرًا مهمًا في بنية النص النثري؛ ما يشير إلى أهمية هذا المصطلح، الذي أخذ بالتمدد خارج الأطر الموضوعية له في دراسات قديمة وحديثة.

كلمات مفتاحية: أبعاد المكان، ثنائيات المكان، التحول المكاني، الغربة والاعتراب.

“ The semantic dimensions of the place in the prose of Lesan al-Din Ibn al-Khatib”

Abstract:

The research deals with the semantic dimensions of the place in the prose of Lesan al-Din Ibn al-Khatib, the place in the prose of Lesan al-Din Ibn al-Khatib had a large area in his writings . The mention of the place in Ibn al-Khatib's writing in the area of interest in geographical studies is associated with reference to geographical material . This research came to depart from the narrow and subjective limitation , and re- study the place in the prose of Lesan al-Din Ibn al-Khatib as a literary material concerned with the beauty of the place and an important element in the structure of the prose text, which indicates the importance of this term, which extends outside the frameworks set for it in old and modern studies and considering it acritical term .

Keywords: Spatial dimensions, Place binaries, Spatial transformation, Alienation and alienation.

المقدمة:

وَجَدْتُ في نثر ابن الخطيب تعبيراً منبثقاً عن رؤية مكانيةٍ وأفاق الحياة وإنسانها، ناظرًا إلى وشائج التلاقي العام بإنسانية أندلسه ومكانه، بفهمه ومواقفه وتواجهه، رائدًا في ميدان الحياة الاجتماعية؛ لذلك اتَّسَمَ بتَّاجِه الأديبي النثريِّ بأرقى مواصفات الآداب المترقية المُعَبِّرة المؤثرة عن علاقة الإنسان بمحيطه المكانيِّ.

وهذا ما التفت إليه النقد الحديث باعتبار المكان مصطلحًا حديثًا نقدياً غربياً، ظهر في عدد من الدراسات، سيّما في دراسة (غاستون باشلار) "جماليات المكان"⁽¹⁾، و(يوري لوتمان) "مشكلة المكان الفني"⁽²⁾. وصرف بعض النقاد العرب الوجه اتجاهه، فكان صدى الدراسات التي تعلقته به قويًّا؛ ما أثار عددًا من التفاعلات؛ بحكم طبيعة المكان وتداخلاته مع النص والمبدع والمتلقي. ومن هنا جاء اهتمامي بنصوص لسان الدين بن الخطيب النثرية؛ إذ كانت عدد من النصوص النثرية عرضة لعدد من التساؤلات، التي تواجه أي باحث يتقّى دور المكان وأثره. وهي:

- هل تشكلت معالم المكان في نثر لسان الدين بن الخطيب؟
- كيف ظهر المكان بوصفه ظاهرة جمالية في نثره؟
- كيف صور الأبعاد الدلالية للمكان في نثره؟

ويحاول البحث الإجابة عن هذه التساؤلات لبيان الأبعاد الدلالية للمكان في نثر لسان الدين بن الخطيب. فالمكان في حياة الإنسان أداة تسمح له التمييز بين الأشياء الحسية التي تظهر على مستوى الملاحظة المباشرة؛ ولذا شكّل المكان قيمة عظيمة ورمزية تربطه بالأرض منذ طفولته حتى يودع هذا المكان إلى مكانه في الحياة الأخرى. وهي في المنظور الإسلامي مكان القرار الثابت والأزلي.

وتتبع أهمية البحث من تفرّده في تناول صورة المكان في نثر لسان الدين بن الخطيب على وجه التعيين، ما يعني تناول وصف صورة المكان في النثر الأندلسي بوجه عام؛ إذ اقتصرَت الدراسات التي تناولت صورة المكان في الأدب الأندلسي على صورته في الشعر دون النثر.

والمكان يمثل حيِّزًا كبيرًا في حياة الإنسان، ففيه يعيش، ويستمدّ مكانته من القول بأنّ أفعال الخلق تقع في زمان ومكان⁽³⁾. ويمثّل المكان الحيّز الذي يضمّ أنشطة الإنسان، وينطلق عبر هذا المكان في صورته وأشكاله المتعددة من حيث الارتفاع والانخفاض، البرودة والحرارة، القسوة واللفظ، الجذب والإثمار...، ثم يُنظر إليه في مجاله الأوسع ليشمل الأرض وما عليها، ومن ثمّ إلى ربط هذا المكان بالرؤية الأدبية التي هي جزء من نظرتنا الكلية إلى كل ما يحيط بنا، وتسليط الضوء على جوهر المادة الأدبية؛ فإنّ لكل عمل إبداعيّ مكانه الذي يُنجز فيه، ومجاله الزماني الذي يُولد فيه.

ويحمل المكان دلالات متنوعة، فهو تلك الجغرافيا الممتدة حينًا والضيقة حينًا آخر. فمثلما يمتلك دلالة على الصعيد النفسي للشخصية التي تمتلكه، يدلّ على ساكنيه دلالة سلوكية واجتماعية وثقافية، لكن ريشة الأديب هي الكاميرا التي تُقرّب تلك الصورة أو تبعداها في ظل مفاهيم إيحائية غدت راسخة في أذهاننا.

¹ باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا.

² لوتمان، مشكلة المكان الفني، تقديم وترجمة سيزا قاسم.

³ المرزوقي، الأزمنة والأمكنة (ج1/139).

وتقافة الإنسان عن المكان وتصوّراته ومفاهيمه الذهنيّة، هي التي تحدد المعاني الرمزيّة، وتقوم بتحليلها، فالمكان الذي يضيق بصاحبه ربما يوحي بالأسر أو القيد والشعور اتجاه هذا المكان بالانقباض، ويحفّز على الرغبة بالانعتاق منه. في حين أنّ المكان الفسيح ربما يُومئُ إلى معانٍ عدة. منها الحرية والانطلاق، كما قد يُومئُ إلى الشعور بالسعادة والقبول⁽¹⁾.

والمكان عنصر رئيس في بعض الفنون الأدبيّة، وهو ركيزة مهمّة فيها، لا يقف عند حدود نطاق الحدود العامّة، بل إنّه يشارك العناصر الأخرى كالزمان والصور الفنيّة والخيال في تعميق العمل الأدبيّ والفنيّ وإبرازه، ولا يكتمل العمل الأدبيّ إلا بحضوره البارز فيه⁽²⁾.

ويتفاعل الإنسان مع محيطه، وهذا التفاعل يأخذ بالتدرج مع مضي الوقت، ويصبح أكثر إثارةً، فالأديب يُعبّر عن فكره الذي يتداخل مع بيئته أو ينعكس فيه، لكنّ هذا "الانعكاس ليس آلياً ولا متوازناً ولا بسيطاً، وإنما هو عملية معقدة مركبة"⁽³⁾، نجده يتخذ أبعاداً ودلالات خاصة تختلف باختلاف الشخصية وما تضيفه من قيمة على المساحة المكانيّة التي تقطنها، ومن ثمّ نحصل على ألوان مكانيّة مختلفة، حتى يمكننا القول إن طبيعة المكان قد تُمثّل في الحقيقة جزءاً من طبيعة الإنسان. والمكان جزء من الذات؛ لذلك مال غاستون باشلار نحو إلغاء هندسيّة المكان، وعمل على التركيز على قصديّة الوعي، أي أنّه ينظر للمكان من خلال ذاتيته، فلا يوجد موضوع من دون ذات⁽⁴⁾.

يتبيّن من خلال هذه المفاهيم مدى الارتباط المعنويّ والحسيّ للإنسان في المكان المحيط به، وطبيعة الدور المهم الذي يقدمه المكان من خلال مختلف تفاعلاته في بناء مفاهيم ورؤى فكريّة لديه، ومحيطه الذي يرتبط به، ثمّ ما ينشأ عن ترابط الإنسان فيه ومعه من علاقات ومصالح، وتشابكات، ومن وراء ذلك أفكار وأحاسيس ومشاعر ورؤى تتوالد. فالمكان وفق هذه الرؤى اصطلاح يدلّ على وجود، وقد تفرّق صور هذا الوجود وتعدّد. فقد تكون مدناً وأنهاراً وجبالاً، وودياناً، ثمّ وطناً بمفهوم أوسع، أو كوناً بمفهومه الأوسع. وكل هذا يترسخ في ذهن الإنسان وينمو معه.

وتتضافر عناصر عدة في تشكيل العمل الأدبيّ وإبرازه، بعضُها يكون ظاهراً يتوصل القارئ إليه بسهولة، وأخرى ترسم ظلال النصّ بطريقة ما، وتختلف حضوراً وغياباً بتنوّع الموضوع الأدبيّ.

والمكان عنصر من هذه العناصر يسهم في بناء كثير من النصوص الأدبيّة، والقصصيّة منها على وجه الأهميّة، وقد يكون عنصراً رئيساً وبارزاً، وقد نحتاج إلى القراءة المتعمقة للكشف عنه، واستدراك جماليّته وفنيّته وفعاليتّه في هذا العمل الأدبيّ أو ذاك. ويكتسب المكان أهميته بحكم وظيفته في رسم الأحداث وتطوّرها. والمكان وفق هذه الحالة، يأخذ بعداً تشكيليّاً، ويتحول إلى معنى جماليّ من أبعاد النصّ؛ لما يمنحه من إمكانيّة الغوص في أعماق البنية الخفيّة والمتخفيّة في أحشاء النصّ وأجوائه ورصد تفاعلاته وتناقضاته⁽⁵⁾.

¹ زنبير، المكان في العمل الفنيّ (ص118).

² نجمي، شعريّة الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربيّة (ص32).

³ ماضي، في نظرية الأدب (ص84).

⁴ أبو هيف، جماليّات المكان في النقد الأدبيّ المعاصر (ص4).

⁵ زنبير، المكان في العمل الفنيّ (ص119).

ويُبنى المكان في العمل الأدبي على هئتين، هيئة المكان على صورته الأولية ووضعه الحسي والطبيعي، وما أحدث الإنسان فيه من مظاهر البناء، كالطرق والبيوت والمدن والقرى، ثم ما يقوم به الأديب من وصف ما يشاهده بصورة تقليدية واضحة.

أما الهيئة الأخرى للمكان، فهي كل ما يقوم به الأديب من جراحة تجميلية للنص المكاني يسبغ عليه تصوراته وخياله، ويعيد بناء المكان بكثير من الأدوات اللغوية ذات الدلالة غير المباشرة، فيكون المكان ظلاً لخلفية النص، أو دافعاً أساسياً في بناء النص، "إنَّ الطريقة الفنية هي التي تظهر لنا جمال المكان، وصحيح أنَّ المخزون التاريخي لهذا المكان يمدُّ الكاتب برؤى ثرة، إلا أنَّ ذلك كله لا يعطينا فناً بدون رؤية شخصية"⁽¹⁾.

ولا يتوقف وصف المكان في العمل الأدبي على تسجيل صفات هذا المكان وتوثيقه، أو الإشارة إلى متعلقاته من قريب أو بعيد بصورة تسجيلية، بل يجدد الأديب في البحث عن أدوات فعالة، يوظف الصورة الفنية فيها توظيفاً جمالياً، يسعى فيه إلى إعادة البناء، واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر، والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة⁽²⁾، ما يفسح المجال لبروز الدلالات المقصودة من تناول وصف المكان وبيان صورته.

ويحضر المكان في أدب الأديب بصورة ما، أدرك ذلك بصورة مباشرة، أم داخله حضور المكان في فكره وثقافته ومشاعره. وعليه النظر في الأسئلة الآتية حتى ينجح في بناء علاقته بالمكان على الوجه الأمثل: كيف ننظر إلى المكان داخل العمل الفني؟ وكيف يبدو؟ وهل هو صورة مطابقة أو مشابهة لما هو في الواقع، أم أنه يتجاوز تلك الآفاق فيتحول إلى رمز ودلالة وإيماء؟ عندما نستند إلى المكان في تناول النص، فإننا قد نحتاج إلى دراسة متعمقة أحياناً، تخرج بالنص عن مفهومه المباشر إلى تفهم دلالاته. وهذه القراءة تتطلب من القارئ بأن يقوم بتأويل النص والخروج به من المعنى الحسي الظاهري إلى المعنى الدلالي، يتجاوز فيه علاقة المادة أحياناً إلى العلاقة الشعورية الناشئة بين المكان وقاطنيه أو المتأثرين به، ويتفاعل مع الدلالات التي يوردها الأديب عن المكان؛ ليعيد تلقي النص بصورة مختلفة تتسجم والمعنى الزمني الذي يفرض وجوده على الأديب ورؤاه⁽³⁾. فأهمية المكان في النص الأدبي لا تكمن في ذاته بوصفه مكاناً، وإنما من خلال الوظائف التي يؤديها في النص.

وقد تختلف نظرة القارئ للمكان حسب رؤاه الفكرية أيضاً، فهناك من يرى أنَّ من مقتضيات المكان في الفن أن يعكس ما هو موجود في العالم الخارجي على صورته الأصلية، وهناك من يرى أن ما يجب أن يحتويه المكان هو فقط درجة من المتشابهات مع المكان على الأرض؛ بل ثمة من نحا نحواً مختلفاً حين جعل من حق الفنان أن يبتعد عن المتشابهات وعن كل ما يشير إلى مصدر مكاني خارجي⁽⁴⁾. وفي الإطار نفسه، قد نجد من ربط بين المكان والوطن باعتباره يحيل على حدث تاريخي ما في زمن ما، وعلى تشكيلة اجتماعية تعطي انطباعاً وطنياً⁽⁵⁾.

لقد كشفت النصوص الأدبية - منذ عهود مبكرة - في الأدب العربي عن طبيعة موقف الأدباء من المكان مادياً ومعنوياً، ومدى رؤيتهم له من خلال الحديث عن وصف المكان، وكيفية إبراز مشاعرهم وأحاسيسهم تجاهه وتجاه ما يحتويه، فكانت

¹ النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي (ص7).

² عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي (ص340).

³ بختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية (ص5).

⁴ زنبير، المكان في العمل الفني (ص119).

⁵ النصير، الرواية والمكان (ص125).

النصوص الأدبية وسيلتهم للتعبير عن هذا الارتباط، ولا أدلّ على هذا الترابط من تسمية السطر من الشعر بالبيت الذي ليس هو مجرد تشبيه ظاهري فقط، بل هو ترجمة لكثير من معاني الوجود والحياة، "فالبيت من الشعر كالبيت من الأبنية، قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون"⁽¹⁾.

والأديب أكثر تقاعلاً، ولربما أقدر على الاستجابة من غيره في إبراز تلك العلاقة التي تملأ قلبه وعقله، ويُعبّر عنها بقلمه ولسانه؛ لذا فإنّ مفهوم المكان في الأدب لا يُفسّر من خلال الوصف الماديّ فحسب، وإنما في العلاقة الناشئة بين الإنسان والمكان وما يثيره من أفكار ورؤى، وما تشعر به الذات الأدبية حيال ذلك. ويمكن القول بأنّ المكان يُشكّل موضوعاً وفناً في النصّ الأدبيّ من خلال العلاقة القائمة على التآثر المتبادل بين الأديب والمكان. ولربما نلمس تأثير المكان واضحاً جلياً في حصيلة الأديب الثقافية والعلمية، دون أن يزجّ الباحث بنظرية حتمية البيئة في العملية الأدبية، لكنّه يميل إلى عدم إنكار أثر البيئة في الإنسان ونتاجه. فما هي المنطلقات التي ارتكز عليها ابن الخطيب في رسمه صور المكان؟ وما الأسباب التي جعلت المكان يحوز اهتمامه، وينعكس في نثره؟

لقد سجّل ابن الخطيب المكان مندفعاً من عدة منطلقات، يمكن تلخيصها هنا؛ لأهميتها في الإجابة عن هذه الأسئلة، وهي:

المنطلق الأول: الأوضاع السياسية.

ساهمت الأوضاع السياسية واستمرار محاولات الإسبان لإنهاء الوجود العربيّ في شغل فكر ابن الخطيب ووقته؛ ما جعله على الدوام في حالة من الارتباط بهذه القضية المصيرية من جهة، واستجابة لرغبة السلاطين الذين خدمهم، بحكم وظيفته من جهة ثانية، فهو يحتلّ مركزاً وظيفياً وسياسياً مرموقاً في سلم ديوان السلطة، فنراه يحرص على نشر الإنجازات الخاصة بالدولة، والميل إلى تنفيذ توجّهاتها وسياساتها، وتسجيل حوادث الدولة، والتفاخر بمآثر السلطة. وإن كان أدبه في هذه الحالة لا يتعارض مع رغبته الداخلية في أحيان عديدة. فقد أثار المكان من حوله ضروباً من مشاعر الحنين والاشتياق؛ لقدسية المكان ووجع العربي على كثره المفقود، فنجد قلمه قد جدّ في بحثه عن أحرّ كلماته وأدقّها لتصوير هذا المكان، الذي غدا حالة دائمة من التمسر والألم والرغبة والطموح والأمل، ونقلته رسائله ونصوصه الأخرى.

المنطلق الثاني: الاعتزاز بالبيئة الأندلسية وطبيعتها.

اتّخذت العرب طريق وصف البيئة من حولهم. منذ عهود مبكرة. موضوعاً أدبياً؛ لذا أقبل الأديباء على الطبيعة بمفهومها الواسع، فمتلّت ذلك المكان الفسيح الذي يستثير مخيلة الأديب، ويجلب اهتمامه، ويحرك فيه كوامن القول والتغنيّ به تعبيراً عن انفعاله بمشاهدتها، أو تمجيداً لها، محاكياً، أو متخيلاً في أحيان أخرى؛ لتحويل أمر ما يشاهد أو تملّحه أو تقبيحه. وقد نظر الأندلسيون إلى الأندلس بوصفها أغنى بقاع الدنيا منظرًا وأوفرها جمالاً، ولذا شغفوا بها، وأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها، ويستمتعون بمفاتها، فوصفوا الرياض والبساتين، والأشجار والثمار، والأزهار والطيور، ووصفوا السحاب والرعد، والبرق والظيف، والأنهار والبحار والمدن.

وامتلك ابن الخطيب حباً عميقاً للأندلس وتحيّزاً واضحاً للأندلسيين، يتمثّل برغبته في التعبير عن فيض مشاعره الجياشة، ورغبته العارمة في توصيف الأمكنة وتسجيلها، ثمّ تحفيز الآخرين نحو ما ينظر إليه؛ فصور تلك العلاقة في لوحات نثرية بديعة، تفنّن فيها تغنّناً واسعاً، ويكاد لا يترك مظهرًا من مظاهر الطبيعة أحسّه بحواسّه، وتفاعل معه بمشاعره إلا صوّره وأبدع في تصويره،

¹ ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر (ج1/121).

ووصفه فأحسن الوصف، حتى صار وصفه لطبيعة البلد وما فيها من أهم الموضوعات التي طرقها في إطار منهجه التأليفي العلمي، منطلقاً من رغبة واضحة في الاستقصاء في الوصف. يقول⁽¹⁾: "فداخلتي عصبية لا تقدح في دين ولا منصب، وحمية لا يذم في مثلها متعصب، رغبة أن يقع سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مُخْصَب، ورأيت أن هذه الحضرة التي لا خفاء بما وقر الله من أسباب إثارها، وأراده من جلال مقدارها، جعلها تُغزّر الإسلام و مُتَبَوِّأ العَرَبِ الأَعْلَامِ، قَبِيلِ رسوله، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وما خَصَّها به من اعتدالِ الأقطارِ، وجزَيانِ الأنهارِ، وانفساحِ الاعتمارِ، والتفافِ الأشجارِ،... فهي الحسناء التي عُدِمَتِ الدَّامُ، وزَيَّنَتْ الليلي والأيام. والهوى إن قيل كلِّفْتُ بمغانيتها، وقصرتُ الأيام على معانيها. فعاشقُ الجَمالِ عُدُوهُ مَقْبُولٌ"

وقد تعددت مظاهر الطبيعة عند ابن الخطيب، وحظيت باهتمامه، واستثارت قلمه. ولعل طبيعة الأندلس جلبت اهتمامه كما جلبت سابقه. من هذه الزاوية يمكن النظر في مظاهر الطبيعة في نثره على صورتها: الطبيعة الحية من بساتين وحيوانات، وصورة الطبيعة الصامتة من أسواق وقصور، وحدائق، ومبانٍ وما يلحق بها من تماثيل، إلى غير ذلك من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائقها.

وسار ابن الخطيب في ركب الواصفين، فوصف الطبيعة بطريقة تتصف بالدقة والتصوير، وتثير الخيال وتحرك الشجون. يقول لسان الدين⁽²⁾: "واستقبلنا وادي بجانة⁽³⁾ وما أدراك ما هو، النهرُ السَّيَالُ، والغُصْنُ الميَّاد الميَّالُ، والأفياءُ والظلالُ. المِسْكُ ما فُتَّ في جَنابته، والسُّنْدُسُ ما حاكته يدُ جَنَّاته، نعمه واسعة، ومساجده جامعة، أزرَّتْ بالغوْطَتَيْنِ زياتته وأعناؤه، وسَخَرَتْ بشُعبِ بَوانِ شعابُه، بحيث لا تبدو للشَّمْسِ آياتٌ، ولا تأتي للجرباء حياتٌ. والريحُ تَلْوِي أَعْطافِ غُصونِ البانِ على أوراقِ الكُثبانِ، وتجادب عرايشِ الخمائلِ، فصولِ الغلائلِ، إلى مَرشانة⁽⁴⁾، وهي الكوكبُ الأعلى، والأشهبُ المُحَلَّى، والصباحُ إذا تجلَّى، والعُروسُ على المنصَّة تجلَّى، وبها حَلَّتِ الغيومُ سموطها، ومدَّتْ عناكبُ السحابِ خيوطها، فبتنا وعيونُ المُرُنِ باكيةً، والمنازلُ من تَوَقَّعِ فراقنا شاكيةً، واستقبلنا الوادي نجعله دليلَ تلك الطريقِ، ونَتَّبِعُه في السَّعَةِ والصَّيقِ، فكم مخاضةً منه عبرنا وعلى مشقتها صَبَرنا، حتى قطراتِ الأذيالِ والأزدانِ، وشكَّتْ أذى الماءِ الأبدانُ،... ونَسِينا بمُعاناته ألمَ البُعادِ، ودَكرنا ببرده وإعادته مثلهم في الحديث المُعادِ، اللهم غَفراً فضله مديد، ومنظراً في الحسن فريد، وقد راق شأنه، وتَصافَّ على الشطِّ سُكَّانه، فرأينا الحُورَ تحت سِماطِ الحُورِ، والنُورَ فوق بساطِ النُورِ".

وهو يتناول الأمكنة التي تحوز على اهتمامه، فيصوِّرها تصويراً بديعاً، غير أنه قد يميل إلى تصوير أماكن بعينها، أو يجعلها محور اهتمامه، فالكلمات في إطارها الخارجي لا تخرج عن كونها تحمل معاني بعينها. إلا أن وجودها في نسق فني لغوي

¹ لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة (مج7/6).

² لسان الدين، حُطْرَةُ الطَّيْفِ (ص51،52).

³ بجانة: قرية ساحلية في شمال المرية بنحو 10 كم، وكانت قاعدة إقليم بلنسية، أنشأها جماعة من التجار وأهل البحر الأندلسيين الذين كانوا يعملون بين سواطي الأندلس والمغرب، فرأوا أن نشاطهم بحاجة إلى الدعم والحماية، وكونوا اتحاداً من التجار. وقد كانت هذه الناحية اقطاعاً بيد جماعة من العرب اليمانية، تركته لهم إمارة قرطبة، على أن يقوموا بحماية السواحل من غزاة البحر، حتى عرفت باسم «أرش اليمن». ثم حصل التجار على الحق بإنشاء مدينة مسورة. كما بلغ ازدهار بجانة أوجه في عهد الحكم الناصر. انظر: لسان الدين، حُطْرَةُ الطَّيْفِ (ص51). والمنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة (ص13).

⁴ مرشانة، حصن منيع في مقاطعة المرية. وهناك حصن آخر بهذا الاسم في إشبيلية جنوب شرق قرمونة، ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب (مج2/244).

معين يمنحها بعداً دلاليًا آخر؛ فهي لم تعد إشارات أو رموزًا ذات أهمية أولية فحسب، بل غدت أكثر حيوية ومرونة وتصويرًا ودلالة. يقول: "وتصاف على الشط سكانه، فرأينا الحور تحت سِماط الحور، والثور فوق سِماط الثور".

ويعدّ نثر لسان الدين في الطبيعة صورة دقيقة لبيئة الأندلس ومرآة صادقة لطبيعتها وسحرها وجمالها، فقد وصف طبيعة الأندلس، الصناعات منها كالقصور والبرك والأحواض، والطبيعية كالسهول والأشجار والرياح والأنهار والجبال وأحوال المناخ كالمطر والرعد والبرق والسحاب. وتعدّ لوحاته في الطبيعة بارعة الرسم أنيقة الألوان، محكمة الظلال تشدّ انتباه القارئ وتثير اهتمامه.

ولم يقف عند البيئة الأندلسية في وصفه واهتمامه، بل كانت البيئة المغربية تحظى باهتمامه أيضًا. ومن ذلك ما وصف به جانبًا من مدينة أغمات المغربية، يقول⁽¹⁾: "وكان الانصراف عنها من الغد، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار، شأوقها جريئات الأنهار، تتخللها أطلال الحلال والديار نيفا على شطر البريد، لا تنال صفح ثراه الشمس، ولا ترتاده الحبراء، تتجاوب أصوات الحمام المطوق فوق غصونه. وقد اقتطعت ذلك الجنب الخصب أيدي الوحشة، وأخيفت من حلال غابة السابلة، وسكن رُوعه الآهله البوم، فيا لها من مدينة غزر ماؤها وصح هواؤها، وأينعت أرجاؤها، وضفى عليها من المحاسن رداؤها".

المنطلق الثالث: كثرة تنقل ابن الخطيب واغترابه.

كان من أبرز نتائج اغتراب ابن الخطيب وكثرة ترحاله وانتقاله عن غرناطة التعرف على أماكن جديدة داخل الأندلس وخارجه في المغرب، والتجوال بين مدنه وقراه، كما اطلع على المجتمع المغربي، وهو مجتمع يختلف نسبيًا عن مجتمعه الأندلسي؛ لذلك أكثر من التجوال في مدن المغرب، وحرص على الانتقال بين فئات مجتمعه. كما حرص على أن ينقل ما يشاهده في هذا المكان أو ذاك؛ لذلك نجده يؤرخ للمكان، ويصف عادات الناس، ويتحدث عن جغرافية المدن، ويضع مؤلفاته القيمة في هذا المجال؛ ولذا كثر إنتاجه وزادت مؤلفاته.

ويعكس هذا الاهتمام بالمكان رؤيته الجمالية للمكان وحفاوته، إذ تناول جمالية المكان من خلال قدرته على تصوير المكان بدقة متناهية ومحاولة التأثير في مشاعرنا اتجاهه، والرغبة في السكن فيه، أو النفور منه؛ لما يبثه من شعور وإحساس، كأنه يجعل المكان ناطقًا متكلمًا مثيرًا فينا إحساس الدهشة والجمال أو النفور، حتى كأننا نشاهد ذلك المكان. يقول في توصيف جغرافية غرناطة⁽²⁾: "وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث، الكروم البديعة، طوقًا مرقومًا يتصل بما وراءها من الجبال، فتعم الربى والوهاد، وتشمل العور والنجد، إلا ما اختص منها بالسهل الأفيح، متصلًا بشرقي باب البيرة إلى الخندق العميق، وهو المسمى ب"المشايع"، بسيط جليل، وجو عريض تغمي على العدي أمراجه ومصانيعه، تلوح مبانيها، ناجمة بين الثمار والزيتون، وسائر ذوات الفواكه".

ويعتني ابن الخطيب في كتابته للتاريخ بوصف عادات الناس ووصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية لسكان البلاد التي تناولها بالحديث. من ذلك كلامه عن أنماط اللباس والسلاح والمباني والأعياد والطعام، يقول في وصف غرناطة⁽³⁾: "والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة، إلا ما شاد في شيوخهم وقضائهم وعلمائهم، والجند العربي منهم. وسلاح جمهورهم العصي الطويلة،

¹ لسان الدين، نفاضة الجراب في غلاة الاغتراب (ج2/18، 19).

² لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة (ج1/28).

³ المصدر السابق، 38، ولسان الدين، اللحة البدرية في الدولة النصرية (ص65، 66).

المثناة بعصيّ صِغَارٍ نوات عُرَى في أواسطها، تُدْفَعُ بالأنامل عند قَذْفِهَا تُسَمَّى بالأمداس؛ وقسيّ الإفرنجة يحملون على التدريب بها على الأيام. ومبانيهم مُتَوَسِّطَةٌ، وأعيادهم حَسَنَةٌ، مَائِلَةٌ إلى الاقتصاد؛ والغنى بمدنيتهم فاشٍ ... وقوئهم الغالبُ البرُّ الطيّبُ".

وقد يصور لنا الناس وأوضاعهم الاجتماعية بصورة مباشرة، تتطرق إلى المكان وقاطنيه بطريقة لا تحتاج إلى بذل نوع من التفسير والتحليل. بينما نجد في مواضع عدّة يصف المكان؛ فيومئى إلى طبيعة الشخصيات، لأن البيئات التي يعيش الإنسان فيها تمنح انطباعاً عن شخصيّة ساكنيها؛ ذلك أنّ البيئات تقوم بحمل دلالات مجازية تعبر بطريقة غير مباشرة عن شخصيات ساكنيها، ومسكن الإنسان يعدّ امتداداً لذات الإنسان وطبيعته، أو هكذا يوحي لنا. فإذا ما تمّ وصف المكان كان في ذلك وصف لساكنيه، ما يُكسب المكان بعداً موحياً؛ لهذا يمكن القول إنّ وصف متعلقات المكان كالبناء والأثاث هو وصف لطبيعة الأشخاص، يقول في وصف مدينة أغمات أيضاً⁽¹⁾: "ثم أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل مُوطِّأ لا تَشْرَرُ فيه، ينال جميعه السّقي الرّغد، وتركبه الخلجان وقد تموّج به العشب، وعافته الأيادي، وغلّت أيدي فلاحه الفتنة. وهذه المدينة قد اختطت في الفضاء الأفيح، فبلغت الغاية من رَجَبِ السّاحة وانفساح القُورة، مثلت قَصَبَتِهَا منها قبله. وسورها مُحَمَّرُ التُّرْبِ، سَجِحُ الجِلْدَةِ، مُنْذَمِلُ الخَنْدَقِ، يَخْتَرُقُهَا واديان اثتان من ذُوبِ الثلج وسُورِ الجبل، قامت بضفتيها الأرحاء واردةً وصادرةً، مرفوعة الأسداد، منيعة البناء. يمرُّ أحدهما بشرقيّ المسجد الجامع طامي العباب مُحكم الجسور، نظيف الحاقّة، نزهة للأبصار وعبرة لأعين النظار. ومسجدُها المذكور عتيقٌ عاديّ كبير السّاحة، رحيب الكنف مُتَجِدِّد الألقاب. ومُنْذَنُته لا نظير لها في مَعْمُورِ الأرض. أسسها أولوهم مُرْبِعَةَ الشّكل، وما زالوا يَبْخُسُونَ الذَّرْعَ، وَيَجْحَدُونَ العَرَضَ، حتى صارت مُجَسِّمًا كاد يجتمع في زاوية المخرُوط... واستحققت الشهرة والغربة".

ولم يتجاهل ابن الخطيب دور المرأة الغرناطية في المجتمع الأندلسي، فأدرك تميّزها بالجمال والأناقة، وبهذا الشأن يقول في وصفهنّ مستقصياً⁽²⁾: "حريمهم حريمٌ جميلٌ، موصوفٌ بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشّعور، ونقاء الثّعور، وطيب النّشر، وخفّة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورّة، إلّا أنّ الطول يندُرُ فيهنّ، وقد بلغن في النّقن في الرّينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصيّقات، والتّفيس بالذهبيّات والديباغيات، والنّمّاجن في أشكال الحلّي، إلى غاية نسال الله أن يعصّ عنهنّ فيها عين الدهر، ويكفّ الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة".

ومن معطيات وصف المكان تلك الأبعاد الدلالية المرتبطة، فسعة المكان أو ضيقه، ارتفاعه وانخفاضه، طبيعة مادة البناء به من الحجر أم من الطين أم من الوبر، ... كل هذه الصفات تُسهم في بناء صورة عن المكان وقاطنيه؛ إذ إنّ كل صفة فيه تؤدي طريقها في توضيح أبعاده على مستوياته المختلفة، كالمستوى الاجتماعي أو النفسي، أو الفكريّ، أو الاقتصادي، الذي ينتظم في المكان و بين ساكنيه. وقد يُعبّر هذا المكان أو ذلك عن رؤية قاطنيه للكون والحياة ويصور فكرهم. جاء في وصف غرناطة: "يحفُّ بسور المدينة المَعصُومة بدفّاع الله تعالى، البساتين العريضة المُستخلصة، والأدواخ المُلتقّة، فيصير سُورها من خلف ذلك كأنّه من دُونِ سِياحٍ كَثيفةٍ، تلوحُ نُجومُ الشُّرفاتِ أثناء حَضْرَائِهِ"⁽³⁾. فالاهتمام ببناء الأسوار وعلوها يدلّ على حاجة الغرناطيين لوسائل الحماية والدفاع عن مدنيتهم في كل طارئ، وهي حاجة أكثر إلحاحاً حين ننظر في الظروف السياسيّة والعسكريّة لغرناطة.

¹ لسان الدين، نفاضة الجراب في غلاة الاغتراب (مج2/16،17).

² لسان الدين، اللحة البدرية (ص66).

³ لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة (مج1/28).

يهدف ابن الخطيب إلى تشكيل علاقته مع المكان؛ يُحركه حنينه وشوقه وخياله. فيحسن اختياره للمكان، ثم يتبعها خطوات تعمل على خلق جمالية العمل الأدبي، تبدأ بتصوير المكان وتجسيده واقعيًا، ثم يندفع بصوره، وهو المعوّل عليه في هذا الارتباط، فكلما كان التصوير واسع المدى كان الارتباط أشدّ، والعمل الأدبي أكثر إمتاعًا، ويفسح المجال لشعوره بالتحرك، فيختار زاوية ينظر منها للمكان، تجعل منه عملاً أدبيًا، يحرك كل عناصر العمل الأدبي الأخرى؛ لتدور في فلك هذه الزاوية، التي تصبح أثناء العمل ونهايته محور ارتكازه؛ فيقدم صورته المكانية بعلاقاتها وتشكيلاتها مع سائر العناصر على هيئة جمالية، يعمد فيها إلى خلق متعة لدى المتلقي، استعرتها الذات المبدعة من قبل؛ وهذا من شأنه أن يعمق الصلة بين النص والمتلقي، كما يعمق الصلة بين النص والمبدع⁽¹⁾.

يجد الناظر في نثر لسان الدين أنه يقوم بعرض المكان بطرق وصفية عدة، منها، استخدام الصورة الفنية، وتوظيف الدلالات والمعاني، فابن الخطيب حين يلجأ إلى الوصف يبذل قصارى قدرته؛ ليجعلنا نرى المكان أكثر وضوحًا. وهو حين يعمد في الوصف إلى تصوير الواقع على حقيقته في مظهره الحسي الموجود في العالم الخارجي، فإنه يسعى من ذلك إلى بثّ المصادقية فيما ينقل، فيجعل المكان مماثلاً. غالبًا. لمظهره الخارجي، فالوصف لديه أداة طيعة لتصوير المكان وبيان تفصيلاته؛ ما يشدّ القارئ إليه، ويجعله أكثر قربًا منه، فيجلب القارئ بما يبثّه من إحياءات ودلالات.

إنّ عملية وضع تصور للمكان تحتاج إلى بناء لغويّ متقن تستخدم فيه لغة يسيرة سهلة، تتقلّ النصّ بحيوية، وتبثّ الحياة فيه عبر دلالات المشاعر والتصورات التي تستحضر الخيال وتستثيره.

ولعلّ فكر ابن الخطيب المؤرخ يحضّر في نثره، كما هو في أدبه عمومًا؛ لذا مال إلى الاهتمام بالإشارات الدالة على اهتمامه بتسجيل الأحداث وتصويرها، والتطرق إلى أحوال المدن والقرى في أدبه، فضلًا عن حرصه على تدوين مؤلفاته وعرضها على بعض من أدباء عصره.

رأى باشلار غاستون "أنّ العمل الأدبي حين يفقد المكانية، يفقد خصوصيته، وبالتالي أصالته"⁽²⁾. وبعد هذا السياق الذي يمثل جانبًا مهمًا في النظرة النقدية الحديثة للمكان، هل فقد المكان من مؤلفات لسان الدين؟ أم كان المكان موضوعًا محوريًا في كثير من نتاجه الأدبي؟

أبعاد المكان النفسية والتاريخية والسياسية في نثر لسان الدين بن الخطيب

(أ) الغربية والاعتراب

تستمد الغربية معناها الاصطلاحي من مدلولها اللغوي؛ فالدلالة المعجمية تشير إلى أنّ لفظي الغربية والاعتراب ترتبطان. على الأعمّ الأغلب. بمعنى الغربية المكانية⁽³⁾. ومن هنا، يمكن أن نشير إلى نوعين من الغربية، هما الغربية المكانية والغربية الزمانية⁽⁴⁾.

¹ الشوابكة، دلالة المكان في مدن الملح (ص 86).

² باشلار، جماليات المكان (ص 6).

³ ارتبط معنى الغربية في معاجم اللغة العربية بأكثر من دلالة، من أبرز تلك الدلالات ما يتعلق بالانتقال عن المكان فالغرب الذهاب والتّحّي، وهي الابتعاد عن الوطن. انظر: ابن منظور، لسان العرب (مادة غرب)، والزيدي، تاج العروس (مادة غرب)، والأزهري، تهذيب اللغة (مادة غرب).

⁴ انظر أنواع الغربية: دعدور، الغربية في الشعر الأندلسي (ص 22، 23، 24).

الغربة المكانية هي ذلك الإحساس الذي يسعى الأديب إلى تصويره حينما يتحرك من مكانه إلى مكان آخر؛ لتحقيق أهدافه وآماله، واصفًا إحساسه بالغربة، ومتحدثًا عن تلك الأماكن الجديدة التي توجه إليها، وربما يواجه ظروفًا مخيبة للآمال، في حين مازال وجدانه يلحّ عليه شوقًا وحنينًا لمكانه الأول، فيُعبر عن مشاعر الغربة التي تتألبه في مكانه الجديد، واليوق برغبته الواضحة في العودة إلى دياره التي بُعد عنها. ونجد التعبير عن هذه الغربة المكانية في أشعار الذين دفعتهم الظروف للابتعاد عن أماكنهم وكتاباتهم.

وتتعدد تفسيرات مصطلح الاغتراب؛ لأنه يحمل تأويلات مقاربية، لكنها تفرق حسب المجال المعرفي الذي تنتظم فيه، أما الغربة فقد تكون تحديدًا مبسطًا لجزئية من مضمون هذا المصطلح.

وتعدّ حالة الغربة المكانية هي الأكثر حضورًا في النتاج الأدبي، إلا أنّ الغربة الزمانية لا تقلّ حضورًا وتأثيرًا في نفس الأديب. وهي غربة روحية وإحساس داخلي عميق يدفع الشاعر أو الأديب إلى تلمس حالته الداخلية، وإدراك غربته داخل الوجود، كما هي حال بعض الزهاد وحديثهم عن العودة إلى عالم الروح الأول، فالغربة الزمانية مرتبطة أساسًا بنظرها إلى الدين الذي يحكمها. فالإيمان بأنّ هذه الحياة التي نحياها فانية، وأنّ هذه الأرض التي نعيش عليها ليست هي حياة الروح الأبدية، لذلك قد يعيش بعض من هؤلاء مشاعر الاغتراب، ومن ذلك التوجه إلى ضريح قبر الرسول . عليه الصلاة والسلام . ومناجاته عن هذا الإحساس المفرط؛ فتوجهوا" صوب الديار المقدسة، يلتمسون حدوث المعجزة، يبحثون عن البديل للواقع المتردي؛ توجهوا بأشواقهم العارمة إلى الديار المقدسة، إلى الروضة الشريفة... يكررون نفس اللوعة، ويرددون نفس المنظومة، بحثًا عن خلاص، وعن رمز يتشبثون به، ومزجوا أشواقهم بكثير من التعابير الصوفية، كما استوحوا التجربة العذرية والصوفية"⁽¹⁾. يقول ابن الخطيب في ذلك⁽²⁾:

دَعَاكَ بِأَفْصَى الْمَغْرِبَيْنِ غَرِيبٌ ... وَأَنْتَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبٌ
مُدِلُّ بِأَسْبَابِ الرَّجَاءِ وَطَرْفُهُ ... غَضِيضٌ عَلَى حُكْمِ الْحَيَاءِ مَرِيبٌ

والاغتراب هو الشعور الذي يعيشه المبدع اغترابًا من نوع خاص، وهو بين أهله وأصدقائه ووطنه، حين لا يستطيع الالتقاء معهم فكريًا؛ لذا فإنّ الغربة ترتبط بمفهوم جوهريّ مُتصل بالمشاعر الذاتية التي ترفض واقعا مُرًا مهينًا. الغربة هنا توصف بغربة أرواح لا غربة أجساد.

وقد ترمي الغربة المكانية بظلالها على نفس الأديب فتخلق مزيجًا من غريبتين "مكانية وزمانية، وإن كانت الغربة الزمانية تأخذ بعدًا فكريًا يتصل بنفس الإنسان وروحه، ثم يشرع في التعبير عنها. فلا عجب أن يبدأ أدباء هذه الغربة أولى خطواتهم بالحديث عن الدنيا وهوان شأنها ما يجعلهم يعرضون عن التعلق بآمالها، ويعزفون عن الناس، ويفضّلون النأي بأنفسهم عن محيطهم. فالغربة الزمانية حالة نفسية تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير ملائمة له تجعله يشعر بالغربة بين أهله ومجتمعه، ويُعبر عنها بغربة الذات المبدعة. وهنا نفرّق بين الغربة والاغتراب من حيث التأثير، رغم تلازمهما في الحضور وتداعيهما أحيانًا، فالغربة أقل تأثيرًا من الاغتراب؛ لذا فإنّ النصوص الغارقة في الاغتراب هي أشدّ وقعًا في النفس، وأكثر ألمًا، وأجمل إبداعًا، وتُسهم في تفجير بعث طاقة المبدع، إذ تشدّه إلى الماضي، حيث المكان الأول.

¹ طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي (ص49).

² لسان الدين، الديوان، (تحقيق محمد مفتاح (ج1/157)، ولسان الدين، ريخانة الكتاب وتُجعة المُنتاب (مج1/62).

كانت مشاعر الغربة والاعتراب في العهود المتأخرة للأندلس أكثر بروزاً في الأندلس، ووقعها أكثر حدة؛ لما شهده الأندلسيون من صور الصراع الخارجي والتصادم الداخلي. كل هذه الأسباب دفعت باتجاه تعميق حالة الاعتراب، وهذه الحالة تسربت إلى ميدان الأدب عبر النافذة النفسية للأديب الناثر والأديب الشاعر، فكان ظهورها أشد بفعل الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مرت بها الأندلس، ومن ثم وجدت الغربة الطريق مُسهلاً في مضماري النثر والشعر.

إن تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مرت بها الأندلس جعلت حياة الأندلسيين مضطربة قلقة، ينوش التمتع فيها بالاستقرار منغصاتٍ كثر، إذ إن الأحداث السياسية وسرعة تقلبها، فضلاً عن انتشار الدسائس التي شاعت في الأندلس، دفعت ابن الخطيب نحو الشعور بالاعتراب النفسي، فقد كان يهدف في المرحلة التي سبقت هروبه الأخير من الأندلس إلى تحقيق طموحه وأطماعه في جو مشحون، فترك كل ذلك أثراً في حياته الأدبية والسياسية والاجتماعية، فأخذ يعبر عن ذلك في ثنايا كتاباته. ونجد تأثير الغربة واضحاً في نثر ابن الخطيب الذي أبدعه بعد أن أُجبر على الخروج من غرناطة، فنلمس أثراً على مستوى الرؤية التي ينطلق منها، وعلى مستوى الموضوع الذي يتناوله، وعلى مستوى الصور التي يعرضها في أدبه. فأضاف بعضاً من نثره إلى أماكن بعينها في مدن سافر إليها أو عاش فيها كسبته، وتحذت عما شاهد وتفصيل مرّ بها، مستقصياً كل ما يقع عليه من مظاهر الحياة.

ولا يمكن لابن الخطيب أن يتجاوز المعنى الأول للغربة، لأنه يرتبط بالمعاني اللاحقة مثل غربة الإنسان في الجغرافيا بعيداً عن الوطن، أو غريته النفسية داخل وطنه ووسط مجتمعه، حينما بدأ يشعر بخطورة الأوضاع من حوله واحتدام صراعه مع خصومه السياسيين. يقول ابن الخطيب⁽¹⁾: "وأنزل الله عز وجل عليّ جبال العجز والكسل، وسقوط الأمل، وتوقع الشر، وفساد الفكر، وجمع المطالب كلها، والآمال بأسرها، والغايات بأجمعها، في حصول راحة، وتمني خلوة، وقطع ما بقي للعمر من برهة في دار أمنٍ وخلوٍ من شغب. وصرتُ أتخيل ذلك، وأتملّ الغور والحصول عليه كما يتخيل مجنون بني عامر الظفر بليلى والانفراد بها، من غير نظر لهوى يردى، ولا سُبُع يعتدي، ولا وادٍ يُعرق، ولا نارٍ تُحرق" ما يعبر عن أزمة نفسية اشتعلت نازها بين جوانحه. ألم تكن نهاية حياة ابن الخطيب بصورة مروعة، نتيجة الدسائس والأطماع؟ ألم نخسر كثيراً من كتبه التي أحرقت أو أخفيت بسبب تلك الأجواء المشحونة؟

ولعل ما وجده ابن الخطيب من تلك الأسباب التي أشرت إليها قد أثرت في حياته الشخصية والأدبية، وهو من سادة المجتمع، وكان يتمتع بنفوذ سياسي واسع في المجتمع الأندلسي مدة من الزمن، فضلاً عن تفوقه وعبقريته. وقد أكثر الحديث عن حاله وعن اغترابه في نثره وشعره، فوصف مشاعره هذه بمن ارتبط بهم مكاناً، وأمل منهم نجدة وإسعافاً. ومن أمثلة ذلك ما خاطب به أحد أعيان مدينة آسفي المغربية، متنازلاً عن اعتزازه بنفسه، ومتجاهلاً فخره بها؛ ما يعبر عن حالة من الوهن النفسي. قال⁽²⁾: "أؤمل التوسل والتقرب، وأخطبُ منك الأُنس الذي أنسي به التَّغرب،.... وظفرتُ من ودِّ حافده بالدُّخْرِ الثمين، فيا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين"⁽³⁾... وما فقد الإيناس من أمل الناس، وتتحل

¹ لسان الدين، أعمال الأعلام (ج2/316،317).

² لسان الدين، نفاضة الجراب في غلاة الاعتراب (ج2/26).

³ يشير إلى قوله تعالى في سورة يس: "قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون (26) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين" (27).

الأفراد، وتخطى الأجناس،...وما يَظْهَرُ له من تأنيس غُربَةٍ وإِزاحة كُربَةٍ، ورُعْيٍ وسيلَةٍ وقُربَةٍ، والله - عزّ و جلّ - يُبقيهِ مقصودًا على بُعْدِ المَكانِ".

وإذا دَقَّقْنَا النظر في عبارته وألفاظه، ومنها "أومَلِ التَّوَسَّلِ والتَّقَرَّبِ، وأخطب منك الأُنس الذي أنسي به التَّغْرِبَ"، و"يظهر له من تأنيس غُربَةٍ وإِزاحة كُربَةٍ"، وما اقتنسه من القرآن قوله تعالى: "فيا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين" ندرك تمامًا أن الحركة التي تدفع بابن الخطيب نحو هذه الوجهة من التعبير، هي إحساسه الواضح بمشاعر التغرب، فهذه المفردات التي يشع منها لهب الاضطراب والقلق، هي وسيلة تلك المعاناة النفسية؛ لتصور اغترابه النفسي، وقوة تأثيرها فيه، وتعبر عن تدافع صور الاغتراب النفسي لديه، كما تبين حاجته للاستقرار، إلا أنه أخفى بإظهار مشاعر الفرح مشاعر الاغتراب.

ودفعت الأحداث ابن الخطيب إلى أن يلوذ بالمغرب، ويترك غرناطة، ويحمل زوجه وأهل بيته. وتلعب الأحداث المستمرة في تعميق إحساسه بالغربة، ومن هذه الأحداث وفاة زوجه عام اثنين وستين وسبعمائة وهو في منفاه الأول في سلا، فغلبت عليه العاطفة الأسرية، وهو غريب عن وطنه، فنطالع حديثاً وشكوى عن ثقل مسؤولياته اتجاه أولاده، وحرصاً على الوفاء باحتياجاتهم. ولعل هذا الحديث الذاتي يكون أكثر واقعية وصدقاً، ويُعبّر عنه صراحة. يقول في ذلك مظهرًا ألمًا وحسرةً واضحين⁽¹⁾: "طَرَقَنِي مَا كَدَّر شُرْبِي وَنَعَّصَ عَيْشَتِي مِنْ وَفَاةِ أُمِّ الْوَلَدِ عَنْ أَصَاغِرُ زُغْبِ الْحوَاصِلِ بَيْنِ دُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فِي بَلَدِ الْغُربَةِ وَتَحْتِ سُرْدَاقِ الْوَحْشَةِ، وَدُونَ أَدْيَالِ النُّكْبَةِ، فَجَلَّتْ عَلَيْهَا حَسْرَتِي، وَاشْتَدَّ جَزَعِي، وَأَشْفَيْتْ لِعِظَمِ حُزْنِي، إِذْ كَانَتْ وَاحِدَةً نِسَاءِ زَمَانِهَا جَزَالَةً وَصَبْرًا وَمَكَارِمَ أَخْلَاقٍ، حَازَتْ بِذَلِكَ مِزِيَةَ الشُّهْرَةِ حَيْثُ حَلَّتْ مِنَ الْقَطْرِينَ، فَدَفَنْتُهَا بِالْبِيسْتَانِ الْمُنْتَصِلِ بِالْدارِ بِمَدِينَةِ سَلَا". ولعل هذا الحديث الخاص يكون أكثر قربًا وأشدَّ وقعًا في النفس. فهو يعيش غربة في تذكر الوطن والتشوق إلى معاهده، ويشكو الابتعاد عن الأندلس، والندم على البعد، ويصور ما يشعر به من حسرة وألم؛ لهروبه من بلده قسرًا، وقد أصابته هذه المفاجعة.

ويتوج ابن الخطيب هذا القلق بوصف المكان والأمة بالاغتراب، فيصف غرناطة بالقطر الغريب في مرات عديدة في كثير من مجالته الأدبية، كالرسالة والرحلة، يقول⁽²⁾: "ومُطَلَعُ بَوَارِقِ الرَّجَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْجَاءِ، عِنْدَ اعْتِكَارِ ظِلَامِ الْيَاسِ، وَمُنْجِدُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ فِي هَذَا الْقَطْرِ الْغَرِيبِ الْوَحِيدِ". وتتكرر هذه المعاني في مواضع عدة في نثره، ومن ذلك قوله⁽³⁾: وهي "الجزيرة الغربية، والفئة المسلمة هي" الفئة الغربية⁽⁴⁾، والأمة "أمة غريبة"⁽⁵⁾، وهي "الفئة القليلة الغربية"⁽⁶⁾، و"الوطن الغريب"⁽⁷⁾، و"القطر

¹ لسان الدين، نفاضة الجراب في غلاة الاغتراب (ج2/115).

² لسان الدين، ريحانة الكتاب وتُجعةُ المُنتاب (مج1/128). والنص من رسالة كتبها ابن الخطيب إلى ملك المغرب أبي عنان المريني على لسان أبي الحجاج.

³ المصدر السابق (مج1/143). والنص من رسالة على لسان أبي الحجاج إلى ملك المغرب أبي عنان المريني يخبره فيها عن انتهاء الحصار عن جبل طارق الذي ضربه ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة في سنة (751 هـ) وانتهى بمقتل ملك قشتالة في الوباء الذي انتشر بين الجنود القشتاليين. وكانت تدافع عنه حامية مغربية، بينما كان الجيش الغرناطي بقيادة يوسف أبي الحجاج يرابط في مؤخرة الجيش القشتالي.

⁴ المصدر السابق (مج2/49).

⁵ المصدر السابق (مج1/150).

⁶ المصدر السابق (مج2/50).

⁷ المصدر السابق (مج1/69).

الغريب"⁽¹⁾، و"غربة الإسلام"⁽²⁾، و"القطر الأندلسي الغريب"⁽³⁾، وهذا القطر مدعاة لأن يشفق عليه أهل الإسلام؛ لأنه غريب وحيد بين البحار الزاخرة، والأمم الكافرة، والمرام البعيد⁽⁴⁾.

فنثر ابن الخطيب حريص على تسجيل التقلبات التي جدت على الأندلس في عصره، وهو يسارع إلى تصويرها بدقة متناهية؛ وذلك بحكم دوره الرائد في الحكم، فضلا عن توقّد إحساسه وشعوره نحو أمته، وهو مُعتز بنثره وشعره، يرى من الضرورة بث شكوى أمته ومعاناتها؛ ولذلك أكثر من وصف الأمة بالغريبة والوطن الأندلسي بالغريب، وتكررت هذه المعاني وتلك الألفاظ في نثره. وإذا ما نظرنا في حياة ابن الخطيب منذ بلوغه ديوان سلطة بني الأحمر وحتى قتل على أيدي خصومه، يتبين أنها تفاوتت بين مَدّ وجزر من حيث السلطة والاعتراب والقوة والضعف. ويمكن أن أوجزها على النحو الآتي:

لقد عمق شعوره بالاعتراب تعلقه بعزناطة مكانه الأول، وهو ممن أجبر على الرحيل عنها، وحينما أجبر على ترك ما أحب، كان ألمه وشوقه نابعا من تجربة إنسانية تتصف بالصدق والموضوعية. وكان شعره - كما نثره - يمثل ذلك الوجد لعزناطة فهذا النص يضم في ثناياه تلك الدلالات المرتبطة بوجدان العربي من القدسية والمكانة للأهل والوطن. وهذا التعلق بعزناطة ولد لديه شعورا مستمرا من عدم الاستقرار وحالة من التأسّي على البعد، وقد رافقه الإحساس بالنكبة إلى آخر حياته.

وعلى ما اتصفت به الظروف التي مرّ بها ابن الخطيب إلا أنها كانت حافزا له، وزادت من نشاطه الفكري ورغبته في التأليف، ولا عجب في ذلك، فالتكيف الفكري والوجداني قد يصعبان على عامة الناس، لكنهما عند عظمة القادة قد يسهلان، فما بالنا بشخصية ابن الخطيب الفذة، التي كان من اليسير عليها ثبات القدرة على الكتابة، مع القدرة على التفرّد بمنهجية، فجلى عن تجاربه الذاتية في ديار الغربة، ومال إلى التأليف في سيرته الذاتية، وتسجيل الأحداث التاريخية، وكان المكان حاضرا فيها.

(ب) الدلالات التاريخية والسياسية

لقد كثرت الإشارات الدالة في نثر ابن الخطيب على تبدل حال عزناطة في عهد السلطان أبي سعيد المغتصب (البرميخو)⁽⁵⁾. ويمكن النظر في هذه الإشارات من خلال ما أورده ابن الخطيب نفسه عن تبدل أحوال عزناطة في عهد الانقلابيين؛ للتعبير عن المأساة التي أصابها، من خلال إبراز صورتين متقابلتين، الأولى صورة حاضرة عن حال عزناطة، تمثل واقعها الميرير، وتبدل أحوالها، وما ألمّ بها وبساكنيها من النصب، وما تعلق بهذا المكان من مجريات للأحداث، ومن ذلك قوله⁽⁶⁾: "وبلغت الأندلس لهذا العهد من خمول الأمر واختلال السيرة وتشذيب الحامية التي لا فوقها، فحضر مدعي وليمة الدائل بها لأول ولايته، رجل الدبا، فالتهم الخلا والكلا، وأعدم بإعدام الغلة أسباب الرخا، وفتح أبواب البلا، وموه لأول أمره ببث النهي عن المنكر الذي هو جرتومه العظمى، وتصاريفه غايته القسوى، وسمح ببعض المكوس فأعطى قليلا ثم أكدى، ولم تمر الأيام إلا وقد عاد في قبئه وأضاق الرعايا بشؤمه، وكلفهم ارتباط الأفراس بعد إغرامهم أرزاق جنده، وإنزال دورهم بغرباء ديوانه، وانحط في مهاوي الشّمات برتبة الأمر، وأنقص من منصب الملك، فقعده للعرض وقد حُشر الناس ضحى في موقف أجلس معه بسريره بعض السوّق

¹ لسان الدين، ربحانة الكتاب ونجعة المُنْتَاب (مج/1/119).

² المصدر السابق (مج/367).

³ المصدر السابق (مج/119).

⁴ المصدر السابق، (مج/361).

⁵ لسان الدين، نفاضة الجراب في غلالة الاعتراب (ج/2/100).

⁶ المصدر السابق (ج/2/100).

عاري الرأس، مثلةً من مُثَلِّ الخلق". بل وصف غَرْناطَةَ في هذه المدة من الزمن بضعف الإيمان واختلال الأحوال، وانتشار الفقر، وغياب السلطة. يقول: "وقد دالت الدولة في أمةٍ ليس فيها إلا مُذْنِبٌ بقَوْلٍ أو عَمَلٍ؛ والمالُ مَعْدُومٌ، وبناءُ المُلْكِ مَهْدُومٌ، والألقاب قد ذَهَبَتْ رُسُومُها، والأحوالُ قد تَغَيَّرَتْ صِفَاتُها، والدُّنيا قد اختلفتْ مألُوفَاتُها"⁽¹⁾.

وأما الصورة الثانية لَغَرْناطَةَ في ماضيها الجميل، حين ارتبط زمانها بلسان الدين صاحب السلطة والحظوة، وما اتصفت به من جمالية للمكان، حيث الوداعة والسلامة والحصانة والمنعة. يقول⁽²⁾: "وهي دارٌ منعةٌ وكرسيُّ مُلْكٍ، ومقامٌ حَصَانَةٍ". ومن شدة تعلقه بها وجد بَرْدَها الشديد محلَّ قبول، جعله يمتدح قول القاضي أبي بكر بن شبرين⁽³⁾ فيما قاله في الاعتذار عن شدة بَرْدِها. يقول⁽⁴⁾:

رعى الله من غَرْناطَةَ مُتَبَّوًّا يسُرُّ كَنِييًّا أو يُجِيـرُ طَريـدا
تَبَرَّمٌ منها صاحبها عندما رأى مسـارحها بالبـرد عُـذْنٌ جليـدا
هي التَّعْزُرُ صَانُ اللهُ مَنْ أَهْلَتْ بِهِ وما خَيْرُ نَغْرِ لا يُكُونُ بَرُودًا؟

هاتان الصورتان المتقابلتان للمكان، تظهران بشكل جليّ مكان غَرْناطَةَ، كأنهما مائلتان للعيان. وابن الخطيب يحضر أمامنا، وهو صادقٌ في مشاعره، مدركٌ خطر هذا التحول وقسوته، فيثير فينا مشاعر الحسرة والألم، ويُعبّر عن ذلك من خلال نثره وشعره، وتتبيّ كلماته عن ذلك.

وفي أثناء إخباره عن غَرْناطَةَ المكان في العهد الجديد؛ فإنّه يتناول أحوال الناس، وعن فساد سادته فيه، حتى وصل بهم الأمر إلى استخدام الحشيش، وكيف أنّها كانت منتشرة في بعض بيوتات الأندلسيين، فهنا يجمع ما بين الأدب والتأريخ؛ فيمنحنا دلالات عن واقع مجتمعه، يقول عن الرئيس أبي عبدالله محمد بن إسماعيل⁽⁵⁾: "غير مُقَصِّرٍ في مخاطبة من مرَّ به عن غاية الإفحاش والتبجح بمعرفة الهنات، فلقد حدّث صاحب شرطته، وهو لا بأس به، قال أطريته باجتتاب الناس الخمر في أيامه، وتحت استداده، وطهارة بلده من قاذوراتها، فقال لي في الملاء المشهود: والحشيش كيف حالها؟ قلت ما عثرت على شيء منه. فقال هيهات، أنزل إلى بيت فلان وفلان وفلان، وعدّ كثيرا من الساسة والأوغاد والصقّاعين، رسم مكائهم وينسبهم نسبة الأصمعي فأخذ العرب ويطونها، ويصف الناصح والغاش منهم بصفته، وربما دعا بعض مشيختهم بالعمومة. قال وانصرفت إلى ما ذكر فوالله ما أخطأت شيئا ممّا رسمه، ولا فقدت شيئا ممّا ذكره لغشيانه بيوتهم وانخراطه في جملة متابيحهم".

¹ لسان الدين، نفاضة الجراب في عللة الاغتراب (ج2/10).

² لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة في أخبار غرناطة، (مج1/16).

³ القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد الجذامي المعروف بابن شبرين توفي في غرناطة توفي (747هـ). وهو شيخ ابن الخطيب، تتلمذ على يديه في غرناطة، جمع بين القضاء والشعر والكتابة. وترجم له في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة. انظر ترجمته في لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة (مج2/152-159).

⁴ لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة (مج1/16).

⁵ المصدر السابق (مج1/100).

ولا يتورع ابن الخطيب في إلحاق أشنع العبارات وأقذعها بالمتسببين في تغيير ظروف غرناطة، وإخراجه منها، حيث فقد منزله ومنزلته في مكانه الذي أحب، مظهرًا حنقًا وشدّةً على السلطان إسماعيل بن نصر، الذي ثار على أخيه السلطان الغني بالله، وتسلم مقاليد السلطة في غرناطة مدة من الزمن قبل أن يتمكن الغني بالله من استرداد ملكه، يقول فيه⁽¹⁾: "الباغي على أخيه أحانه الله لسوء سيرته وشؤم مولده، من ربي مؤمسة وخبيس سجن، لم يكسبه اعتبارًا ولا خشية... شديد الخفة والتزلزل، يعكف وأمه العُشبة الناشئة في المنبت السوء... غير مستتر بالقاذورات، ولا مؤر بأخابث الشهوات".

ويستقرئ ابن الخطيب التاريخ حين نظر في حجم الفتنة التي أحدثها الرئيس أبو عبد الله وهو المخطط والمنفذ للانقلاب على سلطة الغني بالله، ويجد تشابهًا واضحًا بين فتنة الرئيس أبي عبد الله وثورة محمد بن عبد الجبار⁽²⁾؛ لعظم النتائج الخطيرة التي أفضت إليها كل من الفتنتين. يقول⁽³⁾: "واستقرّ الملك بيد ابن عمهم هذا، مُعمل التوثب والمُقدّم على العظيمة، أشبه النَّاس في خُلقه وسيرته بمُحمّد بن عبد الجبار المتوثب على دولة هشام بن الحكم وهادم الدولة العامرية".

وتشير الأحداث الواقعة في غرناطة إلى فداحة النتائج عليه، وما تعرضت له ممتلكاته من مصادرة، وقد وجد نفسه بين عشية وضحاها مسلوب الجاه والحظوة، فكان لكلماته وقعها الخاص ومدلولها التاريخي على تبدل الأحوال. يقول⁽⁴⁾: "واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ريات الأمثال، في تبجر الغلة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، واستجادة العدة، ووفور الكتب إلى الأنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والأبنية، واكتسحت السائمة وثيران الحرب وظهر الحمولة وقوام الفلاحة والخيول، فأخذ ذلك البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البخس، ورزأتها الخونة، وشمل الخاصة والأقارب الطلب، واستخلصت القرى، وأعملت الحيل، وطوقت الذنوب، وأمد الله تعالى بالعون، وأنزل السكينة، وأنصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى، وتعلقت الآمال به". وفي هذه النكبة التي تعرّض لها لم يسلم شخصه من الاستهداف، ولا مؤلفاته من نكبات، إذ امتدت أيدي خصومه لها إتلافًا وتحريقًا⁽⁵⁾.

ويحاول ابن الخطيب أن يلفت الأنظار إلى غرناطة بعد أن تبدلت الأحوال فيها بعودته إلى غرناطة، وتسلم زمام السلطة، ويتناول عددًا من الإنجازات التي تمت، وهي منجزات ظاهرة للعيان، لا يمكن إنكارها وجحودها، يصف ذلك بقوله⁽⁶⁾: "وقد عادت مع ذلك عوائد العافية، وفتحت على الأندلس أبواب الخير والخيرة؛ فصودقت الملوك، وأطردت الفتوح، وذرت المنوخ، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد؛ فلا يسعه جحده، ويعرفه من الكتب في الزمن الآتي من أوقعت عليه مُطالعتُه".

ولا يخفى أنّ ابن الخطيب حين يتطرق في وصفه للمكان يصف عادات الناس في المجلس والمأكل والمشرب وأنواع الطعام والشراب، وغير ذلك مما يرتبط بأنشطتهم الحياتية ونظمهم الاجتماعية؛ فإننا نقرأ المدلولات المرافقة لها. ومن ذلك وصف مضافة

¹ لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة (مج1/49).

² قام رجل من بني أمية يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار، تتبعه العامة في قرطبة، بالثورة على الخليفة هشام المؤيد بالله فخلعوه، ونصب هذا الأخير خليفة بعد أن تلقب بالمهدي، وتم ذلك في جمادى الآخر سنة (399 هـ) وبذلك تم القضاء على الدولة التي حرص على تثبيتها المنصور بن أبي عامر. انظر: لسان الدين، أعمال الأعلام (ج2/109).

³ المصدر السابق (ج2/308).

⁴ المقرئ، نفع الطيب (مج5/76-77).

⁵ لسان الدين، أعمال الأعلام (ج2/319).

⁶ المصدر السابق (ج2/314-315).

شيخ قبيلة هنتاتة عبد العزيز بن محمد الهنتاتي، يقول⁽¹⁾: "وضعدنا الجبل إلى حلة سكناه، المُستندة إلى سَفْحِ الطَّوْدِ، وقد هُيَّ ببعض السَّهل الموطأ للاعتماد بين يدينا من المَصَارِبِ كُلِّ سامي العِمَادِ، بعيدِ الطُّنْبِ، سَوِي القامة، مقدَّر التقاصيل، بديع النَّقْشِ والصَّنعة، ظاهر الجِدَّة، مصون عن البِدْلة، يظل من مراتب الوطاء الرفيع، ولُحْف الحرير⁽²⁾ ومساند الوشي، وأنطاع مُزَعَفَر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجَّبة، والأبهاء المنصَّدة. ولم يكد يقرُّ القَرَارَ، ولا تُنزع الخِفاف، حتى غَمَرَ من الطعام البحر، وطَمًا الموج، ووَقَعَ البُهْت، وأَمَل الطَّخُو، ما بين قصاع الشيزي أفعمها التُّزْد، وهِيل بها السَّمْنُ، وتراكبت عليها لِسْمَان الخُمْلان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولي القوة، غاصة من الآنية بالمُدْهَبِ والمُحْكَمِ، مُهْدِيَةً كل مختلف الشكل، لذيد الطعم، مُهانٍ فيه عزيز التابل، ... ، ثم تتلوها صحون نحاسية تشتمل على طعام خاص من الطير والكُباب واللقالِق، يقع منها بعد الفراغ إمام ذلك الرئيس في نفر من خاصته بما يدل على اختصاص ذلك بنفسه. ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مُسْتَبْطَن للباب البُرِّ، ومعالج بالقَلْو، وأطباق مُدْخَر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخلق، المشتملة على مُجَاج الشهد. وقد قام السماط من خُدام وأساودة، أخذتهم الآداب، وهذبتهم الدُّربة، فخَفَّت منهم الحركة، وسكنت الأصوات، وانشمرت الأذيال. وقد اعتمَّ من الآنية النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة، فاضل أجناسه في الطيب والأحكام والفخامة".

ويدل هذا النص على ما تمتعت به مشايخ قبيلة هنتاتة من مكانة وحظوة وقوة؛ وهذه الأسباب كفيلة بأن تدفع بابن الخطيب بأن يتودد لهذه القبيلة؛ ما يضمن له تحقيق الأمن الذي اضطرب لديه في الأندلس، فضلاً عن رغبته في التجول في المغرب والاطلاع على أحوال الناس والالتقاء بالعلماء والصالحين.

ويسعى ابن الخطيب في هذه النصوص إلى استخدام الوصف وسيلة تعبيرية تتخذ من الأمكنة والشخوص والأشياء والحالات والمواقف موضوعاً لها، وما يبني عليها من مواقف ودلالات موحية. فقد وصف جبل هنتاتة من حيث الموقع والطرق، وصور ما في هذا المكان من مكونات جعلته متميزاً عن نظرائه ، فقد تناول مادة البيوت وهيئتها، وطبيعة المتاع والأثاث، وأنية الطعام والشراب، وأنواع الأطعمة والشراب، والنفت إلى تسمية الأشياء بما يتعين تحديد عناصرها المرادة ، كما أتاح لنا فرصة التعرف على العنصر البشري، وتحديد الحالة النفسية والاجتماعية له، فقدم لنا بعض الشخصيات مرة واحدة، ولكن بإيجاز غير مخل، وعبارات دالة، يقول: "خدام وأساودة، أخذتهم الآداب، وهذبتهم الدُّربة، فخَفَّت منهم الحركة، وسكنت الأصوات، وانشمرت الأذيال". وصف سماتهم الشخصية الخلقية وطباعهم وحالتهم النفسية وسلوكهم في الخدمة، ولمح إلى ما تمتع به هؤلاء من ملامح حسية مرئية.

ويشير ابن الخطيب من خلال هذا الوصف للمكان قدرة المتلقي على رسم رؤية شمولية للمكان، فيوجه النظر وجهة تناسقية من العام إلى الخاص. كل هذا دون أن يغفل وظيفته الجمالية في الجانب اللغوي، فالغاية هي التعبير عن الذات المرتبطة بالمكان.

¹ لسان الدين، نفاضة الجراب في غلاة الاغتراب (ج2/11).

² وردت في النص "حرر" وربما كان الصواب ما أثبتته؛ ليستقيم المعنى.

الخاتمة:

لقد عرض الباحث في ثنايا هذه البحث عددًا من الدلالات المكانية في مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب، وتوصل إلى أن هذه المؤلفات وغيرها من مؤلفاته تتصل بالمكان الأندلسي والمغربي اتصالاً مباشراً وغير مباشر؛ إذ إنها تستمد مادتها الأولى منه، وتعكس مظاهر هذا التفاعل الذي تمّ بين ابن الخطيب وهذه البيئة التي احتضنته برعايتها، وعاش في ظلّها، أو نَقَرَ منها فارقاً أو مسافراً مرتحلاً استجابة لتغيرات البيئة السياسيّة.

ولعل ما واجهه من حوادث عامة، وثيقة الصلة بالأوضاع السياسيّة والحربيّة التي كانت تعيشها مملكة غرناطة من جهة، وحوادث طارئة من جهة أخرى، ومنها نفيه عن غرناطة مرة ثمّ هروبه الأخير منها. إذ أمسى وأسرته مشرّداً، قد ضاق به المكان الأندلسي. كل هذه الأحداث جعلته يرتبط بالمكان تعلقاً وكتاباً، يتلّهف إلى الزمن الماضي؛ ويدفعه شوق دائم إلى عبق المكان. وواكبت صور المكان عند ابن الخطيب تحوّلَه من مكان لآخر، وقد ألقت هذه التحولات المكانية بانعكاساتها على صور المكان، وبدت مظاهر المكان موافقة لهذا التحول. فالمكان عند ابن الخطيب لا يقف عند حدود الطبيعة، بل يتجاوز ذلك ليصوّر كل مشاهداته في كل مكان يصل إليه من جماد ونبات ونجوم وسماء، ومظاهر عمران، في الريف والمدن والبوادي، والإنسان وما يتعلق به من لباس وعادات وما يخوض من حروب، وما يمرّ به من عناء، وما يشعر به من فرح.

وزاوج ابن الخطيب بين النثر والشعر في كثير من نصوصه، لبتّ شعريّة النص في تلك الأمكنة، فوظّف ابن الخطيب اختياراته اللغوية في نصوصه؛ لإيصال ما يريد من قبول المكان، أو إظهار الجفاء له، فجاء الخطاب مُبرّزاً ثنائيات المكان (الأليف/ المعادي، والآني والتاريخي، والواقعي والخيالي)؛ وحُشدت لهذه الغاية الاختيارات الأسلوبية لتجسّد اللغة الشعريّة أبعاد المكان الجماليّة.

وجاء وصفه للمكان حسياً، يركز على الحسّ البصري، ينقل المشاهد بصورة فنيّة، بعيدة عن العمق والتجديد بقدر ما فيها من تصوير، إلّا أنّه يُقدّم صور المكان في سياق جميل، تتسجم فيه المشاهد، وتتلاحق الصور، وتتدرج المعاني، ويحافظ فيه على الطابع العام للنثر في عهده وهو الاهتمام بالصنعة اللفظية؛ ما يمنح النصّ حسّاً موسيقياً.

المصادر والمراجع

- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت370هـ)، تهذيب اللغة (تحقيق علي حسن الهاللي)، مراجعة محمد النجار، دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة: القاهرة، (1964م).
- باشلار، غاستون (1980م)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الأولى، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام: بغداد.
- بختين، ميخائيل (1990م)، أشكال الزمان والمكان في الرواية، الطبعة الثانية، ترجمة يوسف حلاق، دمشق، سوريا: منشورات وزارة الثقافة.
- دعدور، أشرف علي (2002م)، الغربية في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر: دار نهضة الشرق.
- ابن رشيق، الحسن القيرواني، (ت436هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، الطبعة الرابعة، دار الجيل: بيروت، (1972م).
- الزبيدي، محمد مرتضى (١٢٠٥ هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، (تحقيق حسين نصّار)، مطبعة الكويت: الكويت، (1974م).
- زنبير، أحمد (2006 م)، المكان في العمل الفني، قراءة في المصطلح، مجلة عمان الثقافية، العدد (129).
- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، (ت685هـ)، المغرب في حلي المغرب، (تحقيق شوقي ضيف)، الطبعة الثالثة، دار المعارف: القاهرة، مصر، (1955م).
- الشوابكة، محمد، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مجلة أبحاث اليرموك، العدد الثاني لسنة (1991م).
- طحطح، فاطمة (1993م)، الغربية والحنين في الشعر الأندلسي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.
- عصفور، جابر (1973م)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة: دار المعارف.
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، (تحقيق ليفي برفنسال)، الطبعة الثانية، القسم الثاني، دار المكشوف: بيروت، (1955م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة في أخبار غرناطة، (تحقيق يوسف علي الطويل)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان (2003م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، حطرة الطائف، رحلات في المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، (تحقيق أحمد مختار العبادي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، لبنان، (2003م).

- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، الطبعة الأولى، (تحقيق محمد مفتاح)، دار الثقافة : الدار البيضاء، (1989م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، رِيحَانَةُ الْكُتَّابِ وَنُجْعَةُ الْمُتَنَابِ، الطبعة الأولى، (تحقيق محمد عبدالله عنان)، مكتبة الخانجي: القاهرة، (1980م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، اللَّمْحَةُ الْبُدْرِيَّةُ فِي الدَّوْلَةِ النَّصْرِيَّةِ، الطبعة الأولى، (تحقيق محمد مسعود جبران)، دار المد الإسلامي: لبنان بيروت، (2009م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، مِغْيَارِ الْاِخْتِيَارِ فِي ذِكْرِ الْمَعَاهِدِ وَالِدِيَارِ، الطبعة الأولى، (تحقيق محمد كمال شبانة)، مكتبة الثقافة الدينية: القاهرة، (2002م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، نَفَاصَةُ الْجِرَابِ فِي عُلَّالَةِ الْاِغْتِرَابِ فِي عُلَّالَةِ الْاِغْتِرَابِ، الطبعة الأولى، الجزء الثالث، (تحقيق السعدية فاغية)، مطبعة النجاح الجديدة: الدار البيضاء، (1989م).
- لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)، نَفَاصَةُ الْجِرَابِ فِي عُلَّالَةِ الْاِغْتِرَابِ، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، (تحقيق حماد الله ولد السالم)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية: بيروت لبنان، (2014 م).
- ماضي، شكري (2013 م)، في نظرية الأدب، الطبعة الرابعة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- المرزوقي، أبو علي أحمد الأصفهاني (421هـ)، الأزمنة والأمكنة، طبعة مجلس دائرة المعارف: حيدر أباد، (1914م).
- المقري، أحمد بن محمد (ت986هـ)، نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الطبعة السادسة، تحقيق إحسان عباس، دار صادر: بيروت، (2012م).
- المنجم، إسحاق بن الحسين (ت877هـ)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، الطبعة الأولى، عالم الكتب: بيروت، (1987م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر: بيروت، (1968م).
- نجمي، حسن، (2000م)، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، الطبعة الخامسة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- النصير، ياسين، (1986م)، إشكالية المكان في النص الأدبي، الطبعة الأولى، الأعظمية، بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.
- النصير، ياسين، (1986م)، الرواية والمكان، دمشق: دار نينوى للنشر والتوزيع.
- أبو هيف، عبد الله (2005م)، جماليات المكان في النقد الأدبي المعاصر، بحث منشور، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (27) العدد (1).